من فرائد الشعر الغنائي في اللغات اللاتينية

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

سنة ١٩٥٧ اصدرت المطبعة الكاثوليكية في بيروت كتابنا « جولة في آداب العالم » ، احتوى مئة وثمانين قطعة من خمسين لغة ، منها قصيدتان تمثلان العربية الفصحى ، ومئة وستة وسبعون تعريباً لاجل القصائد التي قرأناها في اشهر السن اوربة وغيرها ، وتعريب قطعتين نثريتين فقط .

قد رتبنا تلك المنتخبات ، التي هي نفثات اقلام مئة وواحد واربعين من نوابغ ادباء الخافقين ، وفقاً لطوائف لغاتها الاصلية . ثم خطر ببالنا ان نتخذ من هذه المجموعة الوحيدة من نوعها في لسان الضاد ، مادة جديدة لبضع مقالات ننشرها في « المشرق » .

في هذه المقالة الاولى نقدم للقراء عدداً غير يسير من فرائد الشعر الغنائي في اللغات اللاتينية ، وهي الفرنسية ، البُروفنسية التي يتكلم بها كثير من اهالي اقليم بروفنسة في جنوب فرنسة ، الاسبانية ، الكاتالونية لغة اهالي اقليم كاتالونية في جنوب اسبانية الشرقي ، البرتغالية ، الايطالية ، الرومنشية لسان بعض ولايات سويسرة ، الرومانية لغة رومانية .

قد رتبنا تلك الفرائد على حسب انواع الشعر الغنائي ، بغض النظر عن اختلاف لغاتها الاصلية ، واضفنا بنهاية الايجاز شرحاً لكل نوع منها ، وملخصاً لموضوع كل قصيدة ، مع ايجاد التلاحم المنطقي في سرد كل ذلك .

من البديهي ان الموضوع الاسمى للقريض الغنائي هو الله تعالى ، الكائن الاسمى ، الذي هو وحده لازم الوجود ، وقد اخرج من العدم ما يكاد لا يُحصى من الكائنات الروحية والمادية والجامعة بين الروح والمادة ، بقدرته الخالقة العاجز عن سبر غورها اعظم الفلاسفة والمفكرين ، وهو مع ذلك امن على كل فرد من البشر من الامهات على اولادهن ، فلا يساوي مجموع حب كلهن قطرة واحدة من بحر حبه غير المحدود .

قد وصف حنا ملندث ڤلدس Meléndez Valdés (١٧٥٤—١٨١٧) حضور

الله في كل مكان . يرى ضياءه في الشمس ، عظمته في الجبل الشامخ ومياه اليمّ العميق ، بشاشته في الربيع ذي الزهور الفرحة والعطور المنعشة . يراه ايضاً في احقر خلائقه : في النسيم المداعب لاوراق الشجر ، في الحشرة التي لا يمكننا سوى المجهر من معاينة ضآلتها الشديدة،وفي الذرّة التي عجزت حتى الآن اعجب آلات الرصد عن ادراكنا اياها وفي الختام يتذلل امام الاله الذي ضاقت عن احتواء عظمته رحابة الكون الرائعة لعقول اكبر الفلكيين ، وهو مع ذلك مصغٍ على الدوام ، يحنو ابوي لامتناهٍ ، الى مليارات الاصوات المتضاعدة نحو عرشه الخفي من عالمي الانسان والحيوان،ويتوسل اليه ألّا يحتقر نداءه المتواضع، بل يلبّيه ويقوّي عيني صاحبه ليرى في كل خليقة صورة زهيدة لكمال مُبدعها الفائق كل ادراك ، ويضرم فؤاده بنار الحب الاخويّ التريه لجميع البشر :

« حينما ادرتُ العينين قلقاً ، بتوق نشيط ، شعرتُ بحضورك نفسي المدهوشة ، ايها الاله العظيم . هناك انت ماثلٌ الكون الفائق الرحابة ، تحت السماء العالية التي تجلس فيها مستترًا بالضياء،وفي الآن ذاته تُظهر مجدك الذي لا يبتّر عنه. العُشبة الوضيعة التي ادوسها ، الجبل الذي يرتفع مغطى بثلج دائم ويخفي اصله العميق في المهواة ، النسيم الذي يعبث بين الاوراق مخشخشاً بريشه الخفيف ، الشمس التي تنعش الكون مضطرمة في درة الجلد الشاحبة ، تصيح لي بانك تسطع في لهيب الشمس ، وتمر من الغرب الى مطلع الفجر ، بجناح طائر ، فوق الريح السريعة، وان الجبل الشاهق يقدم لك عرشاً في قمته المكسوة بالثلج ، وان العُشبة تنمو وتزهر بنسمك المحيي !

عظمتك الفائقة تملأ كل شيء ، يا رب ، بل اكثر من ذلك ، من الحشرة التي لا تُرى الى الفيل، من الذرّة الى المذنّب اللامع. انت تعطي الظلام الدامس غطاء رأسه الادكن ، والصباحَ الفرح ستره الرقيق ، صابغاً آثاره بلوني الذهب والاحمر[1] . وحين يتزل الربيع الى العالم الفسيح ، تضحك بشوشاً بين زهوره الجذلة ، وانتشقك في عطوره اللذيذة. وعندما يزيد القيظ القائظ الملتهب اشتعالاً بنيرانه المكتئبة ، تحرك في طيراتك السنابل الملأى وتخفف حرارتها الشديدة .

---

١) الشديد الحمرة .

واذا ركضتُ عندئذ الى الغابة الظليلة ، فانت في ظلها ، وهناك تكثر العرودة الخفيفة اللذيذة فرحاً رقيقاً لروحي التعبة ؛ ومهابةٌ ورعة تهيج صدري ، ويصيح بي صوت : « هو ساكن في هذا الصمت السري ؛ فاسجد له متواضعاً » !

بيد اني اجدك في الآن ذاته في مياه البحر العميق ؛ تنادي الرياح وتسلبها الى غضبه الشديد ، او تسكنه اذا حسُن لديك . في كل مكان القاك واشعر بك عادم الحد ، في المرج المزدان بالزهور ، وفي الستر الساطع الذي يكسو به السماء ليلك المظلم . فانك انه الذرّة واله الشمس والدودة الصغيرة الثاوية في الوحل الحقير ، والملاك الطاهر العابد لضياء مجدك . فتسمع اناشيدهم على السواء ، وتسمع صوتي الذليل وثنا . أنثى الحمَل الهادئة وزئير الاسد الهائل ، وتغيث الكل باريحيتك في كل مكان ، ايها الاله الفائق العظمة والحاضر على الدوام . آه ! اصغ الى ابن في صلاته الحارة . اصغ اليه بحلم وانظر الى كياني الزائل ؛ فلتكن خطاي لائقة بحضورك ، ولتر عيناي الوهيتك في كل موضع ! افعم فؤادي بنار سماوية تشمل مثلك جميع الكائنات ، ولاحبك في كونك ، يا اله المحبة ! كلنا ابناؤك ؛ التتري اللبوني[1] ، الهندي الحشن ، الافريقي المشهّب ، هو انسان ، هو صورتك وهو اخي !»

قد عالج اسكندر إركولانو Herculano (١٨١٠-١٨٧٧) البرتغالي ذلك الموضوع ذاته ، اي حضور الله في كل مكان ، على سبيل الايجاز ، معظماً قدرة الخالق الجبار ، التي تهز البر واطواده ، البحر ولُجه ، بل الجلد وملبارات اجرامه ، التي كوّنتا الارضية كحبة تراب بازائها . ثم ينبه الانسان ، ولا سيما الخاطئ ، لعجزه المطلق عن تجنب نظر مولاه :

« ما اعظم الهي ! الى اي حد تصل قدرته الفائقة ! قد خفض السموات ونزل واطئاً ضباباً كثيفاً ، وطار محلقاً على اجنحة الكاروبيم الساطعة ، وعلى اعاصير من الريح الشديدة قد دار حول العالم . امام نظر المولى تهتز الارض ، والبحور المرتعبة تصيح الى الامكنة البعيدة ، والجبال المدوسة بيده ترشق الدخان . اذا فكر في الكون ، فها هو ظاهر امام وجه الصمد ؛ واذا اراد ، فتح الجلد اجوافه وفتحت جهنم اجوافها .

١) الساكن في ليبونية ، وهي بلد واقع في شمال اسوج .

ايها الانسان ، اذا استطعت ، فاختف هنيهة عن عيني الرب : انظر اين تجد محلًا يبقى مُعفى من نظره ! اصعد الى السموات ، إجتز البحور ، اطلب المهواة ؟ هناك تجد الملك ؟ لا محالة ؟ هو يقودك ولا بد ان تسندك هناك يمينه ! إنزل الى ظلام الليل وحاول ان ترتدي بردائه . . . لكن الدجى ليست دجى له ، وليس الليل دامساً .

يوم الغضب الشديد سوف تحاول سدى الهرب من امام الاله القوي ، حين يدفع حانقاً من قوسه الهائلة سهماً يثوي فيه الموت . بيد ان من يخافه ينام هادئاً في يومه الاخير ، حين ينشقّ في القبر ستر اوهام الحياة » .

اوجانيوس ده أُتشوا Ochoa (١٨١٥—١٨٧٢) الاسباني يرى في البحر صورة من اروع الصور لجمال الله وعظمته ، ومن جهة اخرى مثالًا مؤثراً لمواصف النفس البشرية وسكناتها المتعاقبة على الدوام ، ولعجز عقلنا المحدود ، مع فرط محاولاته الناهكة وثوراته الجنونية ، عن التعمق في فهم كنه خالقه ، وعن مقاومة ارادته الضابطة كل ازمّة الكون :

« ايتها الخليقة الفائقة السمو ، يا بحر ، انت ، ايها الرمز الكبير والغامض للعقل الفائق كل العقول ولحالة البشر ، هذا الهياج الابدي ، الذي قُضي عليك ان تحيا فيه ، هو ايضاً حالة قلبنا الدائمة . نحن ايضاً ، معشر الناس ، ذوو عواصف وسكنات ، ورغم انوفنا نطيع ارادات سامية . نحن ايضاً نريد في بعض الاحيان هدم الحد الذي اقامه الكائن الاعلى امام عقلنا المتشامخ ، كما تريد ، ايها البحر ، حين تتمعض بسبب سجنك ، تجاوز الرمل الذي يحد اطرافك . سيان نحن في الجنون . سيان في القحة ، والعقاب الاكيد لكليهما لا يُحدث الاصلاح فقط .

ايها البحر الشبيه بالزمان في تعذر مقاومته ، والماثل لله في امتناع سبر غوره ، تارةً شديد الهدوء وطوراً شديد الغضب ، ايها البحر المقدم لانظارنا اتحاد الجمال والرحابة التي لا تقاس ، المباهي باظهار قدرتك ، كأنها اله ، اني لاحني امامك جبيني ؟ بل ربما عبدتك ، لو لم تكن روحي قد عبدت من قبلُ الكائن القادر على كل شيء . هو وحده يفوقك في اجتذاب مخيلتي اليه ، وليس غير تأملي فيه يرقيني اكثر من تأملي فيك ! على اني ، يا رب ، لا ادهش البتة من قدرتك غير المحدودة بقدر دهشي منها ، اذا غصت في مشاهدة البحر الذي

وهبته الوجود ، البحر هنا ، وفي السماء الشمس ، لانها مثل جبارين توأمين ، سلطانا كل الخلائق ! »

الفونس ده لامرتين Lamartine (١٧٩٠–١٨٦٩) الفرنسي يرى في جدار متداع ، وهو الاثر الوحيد الباقي من صيدون القديمة — وكانت قبل ميلاد المسيح ، في مقدمة مدن الفينيقيين الفائقة بالحياة والجمال والقدرة — رمزًا جليلاً لازلية الله ، التي لا ماضي فيها ولا مستقبل ، بل حاضر دائم بدون ادنى تغير :

« انزلنا مرساتنا الى وحل قعر البحر ، حيث كانت صيدون[1] القديمة ، في جوار رأس[2] واسع التقوس ، تجمع في غابر الزمان ، تحت ارصفتها الساحلية المصنوعة بالحجب ، اشرعتها ، كأنها فراخ نسور بمثل عددها ، راجعة الى وكرها .

الدهر لم يُبق من ذمارها العظيم الا جدارًا منهدمًا يقي السفن من الامواج ، وهو راقد في طرف خليج شديد الصغر ، ورملاً ينير القمر بياضه . وزبدًا يغسل قارب صياد .

ما اشد ما تُدهشنا وتُثير بنا ابديتك ، يا اله الازمان ، اذ نتفقد شعباً في رمال ، والضجة الوحيدة لمملكة بعيدة الحدود ، نزلنا فيها ليلاً ، هي — اواه ! — وقع مقذاف زورق ! »

حنا ده داووش de Deus (١٨٣٠–١٨٩٦) البرتغالي يكشف لنا في بضعة ابيات ملتهبة افتتانه وهيامه بالله وحده ، وانه يراه في كل شيء مع خفائه ، بل يشعر بتنكهته اللذيذة كلما تنشق الهواء :

« من الذي اجتذبني فجعلني مقطوع النفس . مدهوشاً ولهان . . . ولمن ينبغي ان اقول بخلاصة القول اني لا أفتن بشيء سواه ، ولست بقلبي مُلك شخص غيره ؟ اذا نزلت الى الوادي او تسلقت المنحدر الوعر فمن الذي اطلبه وبمن تُرى افكر ؟ هو تذكارك ذو الافق العظيم الرحابة ، الذي افعم نفسي بافتتان دائم !

تتبعني على الدوام ، وانا لا اتوق الا اليك ! اراك في كل شيء ، والارض والسماء تخفيانك ! لم اشاهدك البتة ، ولا ازال ازيد اعجاباً بك ! لم يُجب قط

١) اسم مدينة صيدا القديمة .
٢) بالمعنى الجغرافي .

وشيخاً. ورأيت في حضنه طفلاً ضعيفاً محدوداً، برعماً شاحباً لم يهتز قط في الصحراء على خرير نسيم لطيف ! رأيته منذ دون انقطاع بالبكاء اللاذع، وحزيناً لقبلة الموت المقوسة .

فصرخت ، وقد رفعت نظري الغضبان الى العلاء بشكاوى خافتة : « يا رب ، أترى صحيح انك تبخل بحبك على اولئك الاطفال الضعاف، انت العالم بآلمها وشقائها ، انت المغذي الازهار والطيور » ؟

وعند نقر الشيخ آلته ثانية ، كانت اصواتها العادمة الايقاع تتساقط على فؤادي شبه قطرات مرتجفة ، وليست اصواتاً مبهمة ، بل اكثر من ذلك : زفرات وشهقات وتشكيات ! لا ادري اي روح خفية سامية ، اي عبقرية صانعة الاعاجيب استطاعت انتزاع كلام رقيق من الآلة الغليظة ، فكان يخيَّل لي ان نفساً منفية في قعرها تنوح مخذولة ! وبتأثير لحنها الحزين ، ذلك الندى من الالم ، كان قلبي العطشان ينفتح ، والعاطفة تستيقظ في الوقت ذاته .

ما اعجبكِ ، ايتها العناية الحكيمة ! اذا احللت الكرب على الشقي المحتوم عليه بالموت ، فقد حثثت غيره على الرحمة المقدسة لكي يحب الانسان السعيد الانسان الباكي ، فتخرج الى حيز العمل شريعتك المعزية .

يا رب ، اني اباركك ، ونفسي تضطرم في حبها لك ! بعدما تركتُ للمتسول حسنة زهيدة من مالي الناقص ، عظمتها دمعة نازلة من عينيه الساكنتين العادمتي الحياة . وبصدر فرح واصلت السير على دربي ظافراً مفتخراً مسروراً، وفي تلك الهنيهة كان اعظم ملوك الارض قد غبطني على السلام المجهول الثاوي في باطني !»

بعد الله تعالى ، مصدر كل كيان وجمال ، لا موضوع اجدر بالشعر الغنائي من الفضيلة التي وحدها تطبع على ابن العدم والتراب شبهاً فتانا لخالقه القيوم .

تاردورس ده بنفيل Banville (١٨٢٣—١٨٩١) الفرنسي يحث طفلاً رضيعاً من معارفه على الفضيلة ، فيذكره اننا آتون من السماء ومن النور ، ويحذره عن عبادة عجل الذهب ، ويتمنى له ان يقرأ في كتاب الرقيع الصامت شيئاً ، ولو يسيراً ، من كلمات مؤلفه القدير ، فيتعلم بتسبيحه وحبه والتشبه بقداسته ، مبادئ لغة الوطن السماوي الموقوفة الى الابد على تمجيد الكائن الاسمى :

«ايها الطفل الذي تضحك شفتك وتزهر ظريفة مثل توبج[1] فاغم ، وانت تبدي حتى الآن على خدك النضير لوني الشمس والوردة ! في هذه الايام المغزولة بالذهب ، التي لا تزال تشبه فيها كل الاشياء الجميلة ، الشاعر الشيخ يبارك طفولتك والعش الناعم الذي تبسط فيه نفسك جناحيها .

اواه ! بعد قليل ، ايها الملك الصغير ، ستغدو كبيراً ! فتذكر سنانا الاصلي . قل بصوت عالٍ الاسماء الالهية ، وتذكر اننا آتون من السماء ومن النور . لا تمنى لك ان تطأ كل شيء تحت خطاك بكبرياء وحشية ، او تكون احد اولئك المجانين الذين يؤسسون على الذهب ونقود السو[2] الضخمة غنائم البخيل ، بل ان تنظر الى السماء . فلتكن حدقتك قادرة على قراءة الكتاب الصامت[3] ، ولتنفتح اذنك ، وهي منقادة للاغاني ، امام اصوات القيثار الغامضة المعاني !

ايها الطفل المهزوز بين ذراعي امك ، سوف تعلم ان الانسان قد حُتم عليه ان يعيش في هذه الغبراء على ارض منفى ، حيث لا ادري اي رصاص حقير يسلك نفسنا اسيرة . ضمن هذا الافق المكفهر — آه ! — الويل للمنفي الذي ذاكرته الذابلة عاجزة عن تذكر لغة الوطن ، وهو عاجز عن التكلم بها ! لكن السماء ، في حال ضجرنا ، ليست مفقودة عن الذي يريدها ويرنجم بها ، وهو ، مع كل شرورنا ، لا يزال يتمتم بلفظ الكلمات الالهية الاصل .

إملأ عقلك بلون السماء اللازوردي ، واحفظه وزيناً طاهراً ؛ واياك ان يكون قلبك الجدير على الدوام بعدم اللوم ، اكثر تدنساً من ريش التم[4] يوماً من الايام . تذكر دار النعيم ، ايها القلب العزيز ؛ اقول الك ذلك ، وانت لا يفسدك وحل ارضي ، وبينما جبينك الصغير لا يزال جبين ملاك » .

انما جوهر الفضيلة حب الله ثم حب الانسان قريبنا ، لانه مخلوق على صورة الله ومفدي بدم ابنه الوحيد . والحال ان من اعجب واعم مجالي حبنا لابنا .

---

١) مجموع ورق الزهرة الملون .

٢) تعريب الكلمة sou الفرنسية ، وهي قطعة نقد ثقيلة ، قيمتها جزء من عشرين من الفرنك .

٣) معنى الكتاب الصامت هو السماء .

٤) طير مائي شبيه بالاوز واطول منه عنقاً .

جنسنا ، هيام الام باولادها . الكاهن جاسنتو ڤرداكر Jacinto Verdaguer (١٨٤٥—١٩٠٢) يصف لنا ذاك الهيام المقدس الذي لا يزال مضطرماً في قلب والدة ، انتزعه ابنها المتوحش من صدرها ، ليجود به على معشوقته الطاغية ، نزولاً عند رغبتها الفاحشة :

« ذلك الابن الشرير قال يوماً لبنت طالحة هذا القول : « انت التي هي اسطع نجمة من نجوم حياتي ، قولي : ماذا تطلبين مني ؟ سآتيك ، اذا اردت ، باكبر كنز من بيت ابي ؛ سآتيك ، اذا شئت ، بجواهر امي » . فأجابت : اعطني قلبها .

الابن الشرير وجد والدته نائمة ، وهي تحلم بلا انقطاع ، وذلك الحلم الشديد العذوبة الذي تحلمه ليلاً ونهاراً ، هي الآن حاملة اياه . ففتح صدرها وانتزع بخنجر فؤادها الحنون ، فؤادها الذي يحيا كحمامة بيضاء من حبها الوالدي. حمله خافقاً ، وهو حامل اياه في عينه مثل مصباح من ذهب ؛ آه من يسمعك ، يا قلب امي ، شاعراً بحب لطيف لي !

بينما كان سائراً بعجلة في طنب حبيته ، وقع عند الرتاج ، وكان قلب امه يقول له : « يا بنيَّ ، هل اصابك اذى » ؟

السيدا كارت Almeida Garett (١٧٩٩ — ١٨٥٤) البرتغالي مصيب بقوله ان الجمال الاسمى صادر عن الحب ، وان الامم التي تُذبل زهرة شبابها ، بل تُفني ايام حياتها لخير اولادها ، هي اجل اعمال الله :

« من الحب يصدر الجمال كما يصدر اللهيب من الضياء . ؛ هذا ناموس الطبيعة. اتريدين ان تكوني جميلة ؟ فأحبي . الاشكال الفاتنة تستطيع الريشة تصويرها على النسيج ، والمنقش يعرف كيف يمثلها نقشاً ، والازميل كيف يصنع التمثال الحسن من اصلب حجر . ولكن اهذا جمال ؟ لا ، بل ظرافة فقط .

بابتسامها بين الآلام للولد الذي تعبده قبل ان تراه ، كما يبتسم الفجر باكياً في الزهور التي على وشك النشأة ، الأم هي اجل اعمال الله ! أيشك في حبها ؟ اطهر ما في نار السموات يشعل فيها هذا اللهيب ذا النور البلوري - هو النور الالهي الذي لم يتغير قط ؛ هو الضياء ، هو الجمال في الطهارة الكاملة ، لان الله قد اوجده ! »

انطون كرشپو Crespo (١٨٤٦—١٨٨٣) البرتغالي يصف بخيالات مبتكرة فرط هيام امه العجوز به ، كأنه خيرها الوحيد على الارض ، وسهرها الروحي الدائم عليه ، من وراء البحور ، لينام نوماً هنيئاً بعد اشغال النهار المتعبة وحوادثه المحزنة :

« لشخص ما انا الزنبقة بين الاشواك[1] ، لي ملامح المسيح الفائقة الجمال ! لشخص ما انا الحياة ونور العينين ؟ واذا كانت الارض موجودة ، فلاني موجود.

ذلك الشخص الذي يفضل على تغريد الطيور المشقي صوتي الخشن ، ليس انت ، يا ملاكي المفرد كالصنم[2] ، وليس واحداً منكم ، يا اصدقائي !

حين احني رأسي وانتطح للنوم في صميم الليل ، وانا مكتئب حزين تعب ، ذلك الشخص يبسط جناحيه في سريري ، فينقضي نومي هنيئاً معطراً .

فلتنزل بركات الله وابلاً على التي تبكي عليّ وراء البحور ! ذلك الشخص هو فجر ايامي الساطع ؟ هو انت ، ايتها العجوز اللطيفة ، يا والدتي ! »

— الولد لا يستطيع ان يُحصي والدته حباً يساوي حبها له. فيجب عليه ان يبذل اقصى الجهد ليقتدي بها في روح التضحية الدائمة . وقد ابدع ادمون ده اميتشيس Amicis (١٨٤٦—١٩٠٨) الايطالي في وصف توقه الى ذلك النبيل :

« الزمان لا يمحو الجمال دائماً ، ولا تذهب دائماً بنضارته الدموع والهموم ؟ كانت امي بنت ستين عاماً ، وبقدر ما أطيل النظر اليها ، يزيد جمالها في نظري ! ليس لها التفاتة او ضحكة او كلمة او عمل لا تؤثر في قلبي تأثيراً لطيفاً . آه ! لو كنت مصوراً ، لقضيت كل حياتي في رسم صورتها ! اود لو اني اصورها حين تخفض محياها ، لكي اقبل ضفيرتها البيضاء ، او حين تخفي تأملها وراء ابتسامة ، وهي مريضة ضانية . علي اني ، لو استجيبت في السماء صلاة من صلواتي ، لما طلبت ريشة روفائيل الأربيني[3] الفتانة ، لكي اتوّج محياها الوسيم بهالة من المجد. لا ، بل اتمنى ان استطيع إبدال حياتي من حياتها ومنحها

١) الكلمة البرتغالية تدل على نوع من الشوك لم نجد له اسماً في العربية .

٢) ربما لمح الشاعر بهذه الكلمة الى زوجته او بنته .

٣) روفائيل سنتي Santi (١٤٨٣—١٥٢٠) ، المصور الايطالي الثابتة ، كانت مدينة أربينو مسقط رأسه .

كل قوى شبابي ، فارى نفسي شيخاً ، واراها متجددة الشباب بفضل تضحيتي !»

على الاخ البكر ان يحذر حذو والديه في تناسي مصالحه الشخصية للسعي الحثيث وراء خير اخوته واخواته ، بحيث يكون سنداً وطيداً لهم بعد وفاة ابويهم . إسمعوا النصائح السامية التي يزوّد بها ڤيكتور ده لپراد Laprade (١٨١٢—١٨٨٣) الفرنسي ابنه البكر :

« ها انت قوي ويافع وعلى وشك دخول الشباب ؛ فتلقّن ارشادي الاخير وتعلّم كُنه حق بكريتك . لكي تعرفه بكل شدة مقتضياته ، لا تحتاج الى كتاب ضخم ، فان ذلك الحق مسجّل في قلبك . . . قلبك هو الشريعة الواجب عليك العمل بها . ولكي تزيد فهماً لذلك ، اقرأ في قلبك مع ابيك ، امام صور جدودنا هذه ، التي ارجو ان تساعدنا .

كما فعل والدي ، ان بكراً تزيهاً من اصلنا بيدي انتخاره ورضاه بكونه يشغل الموضع الاخشن . الشغل والخطر ومقاومة النصيب المضاد مختصة بهُ ؛ وله الافتخار بحماية الاخت الكبيرة والاخ الصغير . ما ادّخره من الدراهم هو المال المشترك الذي يأخذ منه جميع محبوبيه ، وهو يزيد حصة كل منهم بجميع ما يطرحه عن ذاته . فيزهى بفضل جهوده ، وهو مقتفٍ آثار ابيه ، كل الاخوة علماء واقوياء ، وكل الاخوات رزينات وجميلات .

هو الذي في كل فصل من السنة يجهّز البيت بلوازم جميع الاعياد ، فيكثّر فيه الزهور ودواوين الشعراء . خلاصة القول انه يشتغل ليلاً ونهاراً ، غير مكترث لذلك ، فان الآخرين يتنعمون . اليس هو الاب في نوبته ؟ اذا شاخ ، فان الاطفال ينمون . من الوظيفة التي جعله فيها الاله اللطيف ، لا يجد ساعة واحدة ؛ فهو يجابه الاعداء فيها ، بل يموت فيها اذا تحتم عليه ان يموت . حين يَموز القطيع الراعي الغائب — اواه ! — وربما توفي ، فمثيله الكلب الصالح ، يموت بعد سيده في سبيل النعجة والحمل .

هكذا ، حين يتوفاني الله ، تعلم كل العلم الحصة المتاحة لك في ميراثنا الزهيد والمختصة بك من دون قسمة . سوف يسعد صغارنا ، بيد انه ينبغي لي ان أولد فيك ثانيةً . السهر والكفاح والتألم لاجلهم ، ذلك ، يا ابني ، هو حق بكريتك ! »

الجد يجب احفاده برقة ، لا تخلو في الغالب من الافراط في غض النظر عن عيوبهم والصبر على ملاهيهم الصاخبة ، بل يحلو له جداً ان يشاطرهم اياهـا ، متوهماً انه يستعيد شيئاً من هدوء طفولته وسعادتها المحفة ، بعـد اضطرابات حياته الطويلة وكروبها. لقد اجاد فيتال آثا Vital Aza (١٨٥١—١٩١٢) الاسباني كل الاجادة في وصف ذلك الحب الحار الفتور المتنازل ، وهو يحادث غنياً اغرب من معارفه :

« اؤكد لك يا پـكال (Pascal) ، انه ليس على الانسان سوى الرضى بنصيبه ؛ من يستطيع التزوج ولا يتزوج ، فعله سيء جـداً . ترى ما هي حالتك ؟ اي خيبات ! باوغ الانسان الستين من عمره ، وهو ممراض واعزب ! ان يكون شخص غني مثلك جالساً على هذه التكأة ولا يتمتع بسوى محبة خادمة بيت كثيرة الدمدمة ! وحين تمرض مرضاً ثقيلاً ، يأتي هنا للعناية بـك اولاد اخوتك ، وهم يتمنون ان تموت ! اتدعي ان حالك حسن جـداً ؟ فلنسلم بذلك ؛ هذا ذوقك وقد قُضي الامر ، لكن لي غير رأيك في هـذا الشأن . هذه الاثرة وخيمة العواقب ؛ فليعش اعزب من شاء ؛ اما انا ، فبدون عائلة كنت قد مُت من زمن بعيد ، يا پـكال . اشاهـد افراحي كاملة حين ارى ذاتي ، وانا قاعد في منزلي ، محاطاً باولادي واحفادي . فخر شيخوختي : عشرة احفاد ! جمهور ! انت لا تعرفهم ؛ العشرة فاتنون . شُقر مثل الكاروبيم ، اصحـاء ، ولاولئك الاطفال الصغار خدود وربلات سيقان . . . وما اشد شهوتهم للطعام ! اهم طائشون ؟ كلا ! يمكن ان يجاريهم غيرهم بالجمال ، ولكن من المحـال ان يفوقوهم .

يوجد واحد فقط منهم ، پيپه (Pepe) ؛ هذا التاعس الصغير اعرج وافطس الانف ، واحدى عينيه حولاء ، لكنه اكثر علماً من ليپه (Lepe) . حين يأتي اليّ برجله العرجاء ويلاطفني هذا الملعون ، ينال من جده كل ما يشتهيـه . من البديهي ، في الحقيقة ، انهم ، مع كونهم موضوع ملاطفة شديدة ، اطفال مجتهدون جداً ، ذوو علم فاحش ، اكثر جداً من علمي . اصغرهم ، مريم ، اوفر بمعرفة للجغرافية من الذي ابتكرها . وايم الحق ؛ هي استاذة ، فتجعلني في مواقف حرجة ! احفاد اليوم اولئك ، اصحاب الثقافة الواسعة ، هم عفاريت ! اتصدق ان

تلك الصغيرة قد سألتني البارحة ابن الكونغو ، فلم اعرف كيف اجيبها . فأغربت الخبيثة في الضحك وقالت : « هو ، لا جرم ، في افريقية » . فأجبتها : « اذلك صحيح ؟ فلاحظي جهلي ؛ قد ظننت انه في الصين » . ومن ثم ، فلكي اتجنب امثال تلك الحماقة ، اقول لهم : « اذا اردتم ان تبقوا معي ، فلتنبذ العلم ولتشرع في اللعب ! اعفوني من هذه الاحاديث التي ليست من شؤوني ؛ فلتُعرض عن الجغرافية ولتترك الرياضيات . ما درسته قد نسيته ، ومع معرفتي ان علمي زهيد ، لا احتاج في سني الى معرفة شيء اكثر مما اعلمه ، فلتلعب فوراً » !

وحين اصيح هذه الصيحة ، تبدأ بلبلة هائلة ، فما من طفلة تقوى على احتمالها . احدهم يصعد على تخت ، والآخر يثب فوقي ، واسمع « جدي » من هنا و« جدي » من هناك . . . وما اكثر الركض في الدهاليز !

— اتركض انت ايضاً ؟

— اولادي يقولون اني شرٌّ من صغار الاطفال ! انا هكذا ، ولا انكر الامر . لا ادري اعملي حسن ام سيء ، لكني احلف لك ، يا بسكال ، بان هذا اللعب يفتنني . فاضحك وسمّني طفلاً ، إهزأ بمظاهر خرفي . . . انت الشديد الاثرة ، غير جدير بذلك النوع من المودة . انت لا تستطيع فهم الحب ؛ ماذا تدرك من ذلك ؟ اتعرف ما هي قبلة من حفيد ؟ هيهات ان تعلم ذلك ! هي السعادة المشتهاة ، هي جوهر الحب ، هي اعظم ملاطفة ، هي شيء يمنح الحياة هي ما لم تشعر به قط ! هي رؤية سماء في العالم ! انا التمس من الله امرا واحداً بتوق حار ، وهو ان ارى ذاتي محاطاً باحفادي ، اعزاء روحي ، حتى اموت بسلام ، حين يدعوني الى جواره . »

حب الوطن ما هو سوى مظهر من مظاهر الحب المتبادل بين اهل بلد واحد ، جمعتهم منذ قرون عديدة ، في الغالب ، وحدة الاصل واللغة والشرائع والعادات ، تحت سلطة حكومة واحدة . ذلك الحب الشريف الذي اسمه الوطنية ، يثير في قلوب ذويه مقاومة الاجنبي المحتل بلادهم بقوة الاسلحة او بواسطة اخرى ، والواطئ حقوق استقلالهم ، فيحث المواطنين على بذل النفس والنفيس لكسر نير الاستعباد ، ولو اقتضى ذلك خوض غمار حرب ضروس . لويس مركنتيني (١٨٢١—١٨٧٢) الايطالي قد دعا كل مواطنيه ، بلهجة تذكّر انفجار

البراكين ، الى توحيد قواهم لطرد الغاصبين المحتلين قسماً كبيراً من شمال قطرهم ، فلبّوا نداءه ونصرهم الله تعالى على اسيادهم الطغاة :

« القبور منفتحة والموتى ناهضون ، وشهداؤنا قد قاموا كلهم ، والسيوف في قبضتهم ، واكاليل الغار على شعر رأسهم ، ولهيب ايطالية راسمها في قلبهم ! نحن آتون ، نحن آتون ! فقومي ايتها الزُمر الفتية ! لتنتصب في الريح راياتنا في كل مكان ! ليقُم جميعكم بالحسام ، ليقم جميعكم بالنار ، ليقم جميعكم بنار ايطالية في القلب ! أخرج من ايطالية ، اخرج فقد حان خروجك ، اخرج من ايطالية ، اخرج ، ايها الاجنبي !

بلد الزهور والالحان والقصائد فليصر ثانية ، كما كان ، بلد الاسلحة ! لقد كبّلوا ايدينا بمنة كبل ، ومع ذلك لا تزال تعرف كيف تهز سيوف معركة لِنيانو[1] . العصا الالمانية لا تقمع ايطالية ، وسلالات رومية لا تنحني تحت النير! منذ الآن لا تقبل ايطالية اجانب وطغاة ، فقد دامت خدمتها لهم اعواماً مفرطة الكثر . أخرج من ايطالية ، اخرج قد حان خروجك ؛ اخرج من ايطالية ، اخرج ، ايها الاجنبي !

بيوت ايطالية مصنوعة لنا ، وهناك على ضفاف الطونة[2] بيت قومك . انك تُتلف حقولنا وتسرق خبزنا ، ونحن نريد ان يكون ابناؤنا لنا . جبال الالب ومجران هي حدود ايطالية ، وبركبة النار[3] تقطع جبال الأبنين ، والآن نتصب علمنا في كل مكان بعدما دُمرت كل علامة للحدود القديمة . اخرج من ايطالية ، اخرج فقد حان خروجك ، أخرج من ايطالية ، اخرج ، ايها الاجنبي !

فلتكن الالسنة خرساء ، والاذرع متأهبة ، ولتُدر وجهنا الى العدو فقط ، وعن قريب يذهب الاجنبي ورا. الجبال ، اذا توحدت فكرة ايطالية بأسرها . لا يكفي الظفر القائم بغنائم همجية ، بل لتوصد ابواب ايطالية في وجه اللصوص ! ان اقوام ايطالية كلها قوم واحد ، ومدنها المئة هي جميعها مدينة واحدة !

---

١) لنيانو (Legnano) مدينة في ولاية ميلانو ، وقد انتصر اهلها في جوارها على امبراطور المانية فردريك الاول سنة ١١٧٦ .

٢) اسم نهر كبير في النمسة .

٣) يعني الشاعر القطار .

اخرج من ايطالية ، فقد حان خروجك ؛ اخرج من ايطاليـة ، اخرج ، ايها الاجنبي ! »

الحب المتبادل بين جميع بني آدم مع اختلاف اديانهم وجنسياتهم ومصالحهم ، هو شبه ملاط يصل ويوحد مئات ملايين حجارة بناء المجتمع ، فيجعلها صرحاً راسياً شامخاً ، لا يقوى على دكه تباين الآراء والاميال ، ولا تنازع الخيرات . فلولا ذلك الاخاء الصادق ، المتجلي في التعاون الدائم ، لافضى حتماً تخاذل البشر وتحاربهم الى هلاك جميعهم . لقد عبّر ارمان سولي پرودوم Armand Sully Prudhomme (١٨٣٩—١٩٠٧) الفرنسي عن كل ذلك تعبيراً جامعاً بين الايجاز والاعجاز :

« الفلّاح قال لي في منام : « إصنع خبزك ، فاني لن اقوتك منـذ الآن ، فحكّ الارض وازرع » . الحائك قال لي : « اصنع ثيابك انت ذاتك » . والبنّاء قال لي : « خذ المالج بيدك » . وفي حالة انفرادي ، بعدما خـذلني جميع البشر الذين كنت اجرّ ورائي ، في كل مكان ، وقرّ لعنتهم المستحيل تسكينها ، كلما تضرعت الى السماء طالباً منها رحمة فائقة ، وجدت اسودًا واقفة على طريقي . »

ثم فتحت عينيّ مرتاباً في حقيقة الفجر ، فاذا رفقاء جُسُر يصفرون على سلّمهم ، والانوال تدوي ، والحقول تُزرع . فعرفت اني سعيد ، وان في العالم الذي تركته . لا يوجد من يسوغ له الافتخار باستغنائه عن الناس ، ومن ذلك اليوم هويتهم كلهم . »

قد ذكرنا انواع الحب النبيل الذي اجاد وصفها بعض الشعراء المفلقين ، وقد ادركوا ذلك الشأو البعيد من الاجادة في وصف الموت ، وأيم الحق ان الموت ليس ختام حياتنا الزائلة فقط ، بل يجب ان يكون للصالح الانتقال من الحب الارضي الطاهر المتألم الى الحب السماوي الابدي السعادة ، وللطالح الانتقال من بغض الله والانسان ، المصحوب ببعض الملذات السافلة ، الى ذلك البغض عينه مؤبدًا في نار جهنم . ذلك الفرق العظيم يهون علينا فهم تمتع ربوات من الخطأة بانواع الخيرات الارضية المحضة ، كما اوضح حنا ملندث ڤلدس Meléndez Valdés (١٧٥٤—١٨١٧) ، في « فلاح الاشرار » :

« في نجبوحة مجده كان الخاطئ يقول هذا القول : « عبثاً يستطيع الرب مد يده الضعيفة الى حظي ؛ فان جبيني يرتفع الى الغيوم ويحتجب في السماء . اين الصديق واين وعود الاله الذي يترنم متواضعاً ؟ مرة خبزه وعسل طعامي وشوك فراشه ؛ اي ثمر انتجه بفضيلته الباطلة ؟ فلنكد على حياته مكيدة ، وليستأصل ابنائي بالسلاح بيوته واراضيه ، وليحملوا مجدي الباذخ الى اقصى العصور ! فان اسم الصلاح كالسحابة ، يتلاشى عند الموت ؛ اما اسم الرجل القدير فيزداد سناؤه شيئاً فشيئاً ويرتقي الى الكواكب ، فلتسقط ، فلتسقط في فخاخي سذاجة الصديق !

تكلم وانا عابر ؛ ولكنني حين ادرت وجهي لأرى هامته ، لم اجد مقره ! »

الحمام رهيب على كل حال ، ولا سيما موت آلاف النواتي الذين قضوا غرقى في لجج البحر المظلمة ، بعيدين عن عائلاتهم ، بحيث لا يبقى لهم اثر بعد عين . ذلك ما صوره فيكتور اوكو Hugo (١٨٠٢—١٨٨٥) الفرنسي ، بمخيلته القديرة وشعوره الرقيق ، تصويراً في « الليل على المحيط » :

« آه ! كم من النواتي ، كم من الربابنة المنطلقين بفرح لاسفار بعيدة ، قد فنوا ضمن هذا الافق الحزين ! كم منهم قد زالوا — ويحاً للنصيب القاسي المشؤوم ! — في بحر بلا قمر ، في ليلة بلا قمر ، وهم مدفونون الى الابد تحت المحيط الاعمى ! كم من اصحاب السفن الموتى مع نواتيهم ! فان العاصفة قد انتزعتْ مُن حياتهم جميع الصفحات ، وبنفخة واحدة قد نثرت كل شيء على الامواج ! لن يعرف احد خاتمتهم المتخطِّسة في اللجة ، فان كل موجة ، وهي عابرة ، قد حملت غنيمة ؛ احداها خطفت الزورق ، والاخرى البحارين !

لا يعرف احد نصيبك ، ايتها الرؤوس المفقودة ! انك تركتين مجتازة المسافات المظلمة ، وصادمةً بجباهك الميتة صخوراً طافية مجهولة . آه ! كم من الوالدين الذين لم يبقَ لهم سوى توق واحد ، قد ماتوا منتظرين كل يوم ، على الساحل الرملي ، من لم يعودوا من اولادهم !

يسأل الناس : « اين هم ؟ اهم ملوك في جزيرة من الجزائر ؟ هل غادرونا ليحلوا في شاطئ اخصب » ؟ ثم يُدفن تذكاركم عينه ، الجسم يضيع في الماء ، والاسم في الذاكرة ، والدهر الذي يسكب على كل دُجية دجية اشد سواداً .

قد القى على المحيط المظلم النسيان المظلم ! عن قريب يكون شبحكم قد زال عن عيون كل الناس ؛ اليس لاحدهم قاربه ، وللآخر محراثه ؟ اراملكم وحدهن ذوات الجباه البيضاء ، التعبات من انتظاركم طول تلك الليالي التي العاصفة ظافرة فيها ، سوف يواصلن الكلام عنكم ، وهن يحركن رماد موقدهن وقلبهن ! وفي الختام ، اذ يكون القبر قد اطبق جفونهن ، لن يعرف اسماءكم شيء من الاشياء ، حتى حجر وضع في المقبرة الضيقة التي يجيبنا فيها الصدى ، حتى صفصاف اخضر تتساقط اوراقه في الخريف ، حتى الاغنية الساذجة العادمة التنوع في نغمتها ، التي يغنيها متسول في زاوية جسر قديم !

اين التراقي الغرقى في الليالي الدامسة ؟ يا امواج ، كم تعرفين من الروايات المحزنة جداً ، ايتها الامواج العميقة التي ترهبها الامهات الجاثيات ! انت تتناقلينها حين ركوبك مياه المد[1] ، وذلك هو سبب تلك الاصوات اليائسة الصادرة عنك في المساء ، عندما تأتين الينا . »

مهما كانت اهوال الموت ، فهو رقاد طويل تليه قيامة جميع البشر لنعيم او عذاب ابديين . وقد عبّر تعبيراً فتّاناً عن هذه الحقيقة المشتركة بين مئات الاديان ، ارمان سولي پرودوم Sully Prudhomme في « العيون » :

« زرقاء او سوداء — وكلها محبوبة ، كلها جميلة — عيون لا تحصى قد رأت الفجر . الآن هي راقدة في قعر اللحود ، والشمس لا تزال تطلع ! الليالي ، وهي احلى من الزهر ، قد فتنت عيوناً لا تحصى ، مع ذلك تسطع النجوم على الدوام ، والعيون قد امتلأت ظلاماً !

آه ! ان تكون قد فقدت النظر ؟ لا ، لا ، ذلك غير ممكن قد لفتت نظرها في مكان ما ، الى ما يدعى غير المنظور ! وكما ان الكواكب المائلة[2] تغادرنا ، وهي باقية في السماء ، كذلك الاحداق لها مغاربها ، ولكن لا يصح انها تموت . زرقاء او سوداء — وكلها محبوبة ، كلها جميلة — العيون المغمضة لا تزال بصيرة في ما وراء القبور ، وهي مفتوحة على فجر عظيم ! »

طوبى ، بل الف طوبى للانسان الصالح ، الذي يجابه الموت غير هيّاب ، لانه

---

١) المد هنا يعني ارتفاع مياه البحر في اوقات مطردة .

٢) المنحدرة الى مغاربها .

يُسلم نفسه الطاهرة بين يدي ربه الرحمن ، ويرجو رجاء اكيداً ان يقوم من دُجى قبره ، في آخر الاجيال ، يجمع ما تشتت من شمل عائلته ، في دار الحياة الابدية السعيدة . لقد اوضح ذلك الرجاء المعزي لارن ده برلوك پروسي de Berlue - Perussis (١٨٣٥-١٩٠٢) الفرنسي في قصيدته البروفنسية «لاجل قبره» :

« ايها العالم ، إنسني في خلوتي المظلمة ! حسبي ان يضحك شعاع صيفي على الحائط المجاور لقبري ، وان يأتي من حين الى آخر غناء زيز او ثغاء كبش ، فيؤنسني بعذوبة في رقادي الطويل . حسبي ان يمدح اهل محل قبري ، عند مرورهم بي ، اسم والديَّ المسنين الزاهر ، قائلين عني : « هو ايضاً كان صالحاً مستقيماً ، وسنحفظ ذكر ذلك البيت » . حسبي ، حين تجيء احياناً في الظلام بنتي النقية الجبين الى قبري لاجل الصلاة ، ان تمزج دمعة بالماء المقدس . سانتظرك بسلام ، يا يوم الفرح الابدي ، الذي فيه ، مع جدودي واولادي ، ابني داراً عائلية جديدة في السماء . »

اكثر الناس اشد حرصاً على اطالة حياتهم وابعاد شبح الموت المرعب ، منهم على الاستعداد للتواصل لميتة صالحة . اما الانسان الحكيم ، فيتخذ من ادنى الحوادث عبرة تذكره على الدوام انه سائر حتماً بخطى سريعة الى الموت القهار ، وان امره لا بد ان يغوص في لجة النسيان قبل انقضاء عصر واحد على وفاته . لقد عبّر تعبيراً شديد الابتكار عن تلك الحقيقة المذلة لكبريائنا بطرس ده الركون Alarcon (١٨٣٣—١٨٩١) الاسباني ، في قصيدته المشهورة « عند تناول صورتي » :

« عند رؤيتك ، ايتها الصورة الزينة ، واصلةً الى بيتي اليوم بسني وبوجهي ، لا ادري اي حزن مبهم اشعر به حين اقول : « هكذا انا الآن » .

ربما فكرت ان غداً ، حين لا يبقى فيك سوى آثار من عمري الزاهر ، سوف تقول شيخوختي المتكبرة لابنائي : « هكذا كنت » !

ربما فكرت ان يوماً من الايام ، عندما يريد الله ان يدعوني ، سوف تطلب صحبتك زوجتي هذه الفاتنة لتقول : « هكذا كان » !

ربما فكرت انه من الممكن الا يعرفك احد بعد اعوام عديدة ، فيقول عند مشاهدتك غريب لغرباء آخرين : « من تُرى هو » ؟

ربما فكرت ان احد البشر ، وقد اجتذبه ما فيك من الالوان والثياب ، يشتريك قائلاً : « هذا الشخص الوجيه لم يوجد حتماً » !

وربما فكرت في الختام انك ، انت ذاتك ، وقد انكرت الجميل بين اختلاف الآراء الشديد ، تأسفين لكونك صورة الكون مجهول . »

في كل عصر ومصر قد عُني الشعراء الغنائيون اخص العناية بوصف احوال النفس البشرية ، غير السابق ذكرها لان نفسنا قد خلقها الله تعالى على صورته ، وجعلها ملكة الكون المادي اجمع وحلقة الاتصال الحية بين عالم الارواح المحضة وعالم الحيوانات والنباتات والجمادات . بيد ان القصائد الرائعة على هذا الموضوع تُحصى بالمئات ، نكتفي بذكر ثلاث منها . كرّا جونكيرو (Guerra Junqueiro) (١٩٠٠—١٩٢٣) البرتغالي يصف لنا بعاطفة ابوية مضطرمة وبخيالات مبتكرة ، الضياء والفرح الفائضين على نفسه من ابتسام بُنيته :

يا بنتي ، حين تبسمين ، تنيرين الدار بضياء سماوي ، فان الفرح في الطفولة هو كالجناح في الطير ، والعطر في الزهرة . واهاً للابتهاج الذهبي ، للطهارة المقدسة الموجودتين في ابتسام الطفل !

اذ تضحك شفتك ، تُنشد روحي كل قصيدة نيسان[1] ! عند رؤيتي هذا الابتسام ، يا بُنيَّة ، أحدّ اليك نظري ، وتنفذ السماء اللازوردية الى باطن نفسي ، وبصحبتها حمامات طائرة !

انا الشمس المنازعة ، وانت ، يا ملاكي الاشقر ، الشمس الصاعدة ، فاغمريني بالنور ، تبسمي وانثري مسحوق الذهب على ردائي المصنوع بالظلام !

جبرائيل دنُنتسيو d'Annunzio (١٨٦٣—١٩٣٨) الايطالي يبيّن لنا تقدم روحه في التواضع والشجاعة واللطف والشفقة ، بعد انتقالها من الشباب المفرط الاثرة والطيش الى الكهولة الرزينة :

« ايها الشباب ، اواه ! يذبل اكليلك على جبيني ؛ اشعر بثقل وطأة حمل الحياة على جبيني المخفوض ، بعدما كانت وافرة السرور ! لكن روحي زادت طيبةً في قلبي كالثمر الناضج . بتواضعها وشجاعتها تقدر على التسليم وعلى المقاومة . ان جُرحت ، فهي لا تنوح ؛ تفهم كثيراً وتغفر كثيراً . انقضت

١) يعني الشاعر بهذه الكلمة الربيع ومحاسنه الفائنة .

اسحارك الاخيرة القصيرة ، ايها الشباب ؛ سكتت التواطئ حيث زال الدُردور المرعد . اسمع الآن رنة جديدة ، ارى ضياء جديداً ؛ ارى في عيون اخوتي دموعاً شديدة السخونة ، اسمع صدور اخوتي لاهثة ! »

ارتور كراف Graf (١٨٤٨—١٩١٣) الايطالي يصف لنا شدة تأثير لحن حقير حزين ، سمعه من الشارع ليلة من الليالي ، وهو على فراشه ، فخيّل له انه نحيب نفس جرّحها العذاب واليأس :

« الم تسمع قط ليلاً ، وانت راقد في سريرك ، معلّق بين النوم واليقظة ، في ساعة متأخرة ، الم تسمع قط في الليل ، عن بُعد ، نحيب الارغن[1] في الشارع؟ نحيب بطيء الى حد الاتعاب ؛ نغمة رخيمة ، تبكي وتتوسل ، نغمة مسموعة كثيراً منذ الطفولة وغير منسية البتة من ذلك الزمان . هي نبرات حقيرة عالية ، فيها شيء من البح والتقطع ، شاذة عن الاصول بعض الشذوذ ، لكنها تنعب في الظلام وعن بعد ، شديدة التوجع ، شديدة اليأس ! اما تذكرت وقتئذ الايام الماضية او ضحكة امك المقدسة او حبّاً فقدتـه ، فشمرت بوابل من الدموع يتزل من عينيك وبشفرة تطعن قلبك ؟ » .

الفونس توزور Tuor (١٨٧١—١٩٠٤) السويسري يصور لنا في قصيدته الرومنشية « الزارع » افكار الفلّاح وعواطفه ، حين يُلقي البذور على الحقل ، وهو في غير مأمن من كوارث الطبيعة ولا من مفاجآت الموت :

« إشرح لي لماذا يخطو خُطاه الرجل الذي يزرع هناك ، وهو ذو شفتين شاحبتين مرتجفتين ؟ لماذا هذا المحيا الرزين الجليل ، كأن صاحبه يفكر على الدوام في اسرار ؟

ترى كيف يزرع وترى كيف يمرّ على الاثلام ، من هنا وهناك ، بهم اليم . ترى كيف يرفع وترى كيف يخفض رأسه الى السماء والارض . العله يفكر بخوف وتفور شديد في الثلوج والجراد والصقيع والبَرَد ، فيطيل توصية المولى بحقله ، وهو مُمسكٌ في يده القبّعة المرتعشة ؟

هو نفسه قد عالج ذلك الحقل بالف تعب ، ولكن اترى يتمتع هو نفسه بشغل يده ؟ ربما كان غيرُه من يحصدون ويجمعون السنابل ويدرسون الحنطة

١) يعني الارغن الميكانيكي الذي تسمع الحانه بادارة مقبض .

ويدرونها ويستعملونها ! حين الحصاد لا يوجد من يسأل عن خطى الرجل ومشاقه. وربما كان راقدًا مستريحًا تحت الارض الآكلة لجسمه والماحية لاسمه !

إشرح لي لماذا يخطو خطاه الرجل الذي يزرع هناك ، وهو ذو شفتين شاحبتين مرتجفتين ؟ لماذا هذا المحيّا الرزين الجليل ، كأن صاحبه يفكر على الدوام في اسرار ؟»

كثير من نوابغ الشعراء الفنانين قد إنسوا الطبيعة غير الناطقة ، ولا سيما النباتات وبعض الجمادات كالنجوم والبحار والرياح ، اعني انهم قد اعاروها نفوسًا بشرية ، لما شاهدوه من وجوه الشبه العديدة بينها وبين احوال الانسان الجسدية والروحية .

ڤيكتور اوكو Hugo يناجي اشجار الغابة ، بل بُقعها الجرداء ومجاري مياه الامطار ، مناجاة العاشق الولهان ، فيبوح لها باسرار نفسه ، ويتمنى من جمّ فؤاده ان يرقد في ظلها رقاده الاخير :

« يا اشجار الغابة ، تعرفين روحي . عامة الناس تمدح او تقدح على هوى الحُسّاد ؛ اما انت ، فانك تعرفيني . كثيرًا ما رأيتني وحدي في اعماقك ناظرًا وحالمًا . تعلمين ان الحجر الذي تركض عليه خنفسة ، ان قطرة الماء الوضيعة الساقطة من زهرة الى زهرة ، ان غيمًا او قصبة ، تشغلني نهارًا كاملًا ، التأمل ينعم قلبي حبًا . رأيتني الف مرة ، في الوادي المظلم ، استفهم عما اعتاني بك الخافقة ، بتلك الالفاظ التي يقولها العقل للطبيعة ، وبنظرة واحدة ، اواصل في آن واحد ، وانا متأمل خافض الجبين ، غائص بنظري في العشب الكثيف ، استقصاء ذرة واستقصاء العالم ! ايتها الاشجار ، قد رأيتني اهرب من الانسان واطلب الله منتبهًا لاصواتك ، التي لكل منها بعض الحديث .

ايتها الاوراق المرتعشة في طرف الغصون ، ايتها العشاش التي تنثر منها الريح الاريش البيض ، ايتها البُقع الجرداء في وسط الغابة ، ايتها الاودية الصغيرة الخضراء ، ايتها القفار المظلمة اللطيفة ، انك تعلمين اني هادئ نقي مثلك . عبادتي تتصاعد الى الله تصاعد عطورك الى السماء ، وانا ممتلئ خوفًا شبه امتلائك صمتًا . عبثًا يُفيض البغض مرّته على اسمي ، فاني ، على الدوام ، — استشهدك

على دائك ، ايتها الغابات التي تحبها السماء — على الدوام قد سيدت سيدا في كل خاطر مُر ، ولا يزال قلبي كما صاغته لي امي .

يا اشجار هذه الغابات الكبيرة ، الدائمة الخفقان ، اني اهواك ! وانت ، ايها الجلبلاب النابت على عتبة المغاور الصماء ، يا مجاري مياه الامطار التي يُسمع فيها تقلق الينابيع ، ايتها الادغال التي ينبهها العصافير ، اولئك الندامى الفرحون . كلما كنتُ بينك ، يا اشجار تلك الغابات الكبيرة ، في كل ما يحيط بي ويخفيني في آن واحد . في خلوتك التي الج فيها باطن روحي ، اشعر بكآبة عظيم يصغي اليّ ويهواني !

ولذلك ، ايتها الغابات المقدسة التي يتجلى فيها الله بنفسه ، ايتها الاشجار الورعة ، ايتها السنديانات ، يا نبتات الطلحلب ، ايتها الغابة ، ايتها الغابة ، في ظلك وفي خفائك ، تحت اغصانك الجليلة المعتزلة ، اريد ستر قبري المجهول . واريد الرقاد يوم رقادي الاخير . »

يوسف سلكاس Selgas (١٨٢٤—١٨٨٢) الاسباني يصف لنا تعزية سروة ناظرة الى السماء اصفصافة تذمرت من احزانها الدائمة ، وغبطت الكائنات التي لا تشوب افراحها شائبة :

« اذ كان المساء الكئيب الهادئ يلبس مرة اخرى رداءه الخفي على ابواب الليل المظلم ، بعد مغادرته المرج والغابة الظريفة ، كانت صفصافة ناحلة تترجح لتخفيف كربها الدائم ، وقد سُمعت وهي تتذمر عند نسمة الريح ، بصوت رخيم ، مفعم بالزفرات : « لقد وُلدت حزينة ، والكن تسكن في العالم كائنات سعيدة تجهل الالم الكارب والبكاء المستمر والحزن » ! قالت ذلك ونثرت اغصانها على الارض ، فاجابتها سروة ناظرة الى السماء « آه ! طوبى للذين يبكون على الغبراء » ! »

شرل لكونت ده ليل Leconte de Lisle (١٨١٨ — ١٨٩٤) يقارن فؤاده المصاب بمرض روحي عضال ، افقده الحياة واللهيب والصوت ، بقلب الشمس الغاربة الجريح ، فيغبطها لكونها تموت في المساء وتولد ثانية في الصباح التالي :

« ريح الخريف المائلة لزمزمات البحار ، تلك الريح الملأى بانواع الوداع

الاحتفالي وبشكاوى مجهولة ، تهز على طول الشوارع ذات الاشجار ، الايك الضخم المحتقر بدمك ، ايتها الشمس . الورق طائر بين السُحب بشكل الاعاصير ، وتُرى اوكار كبيرة مائلة الى النوم عند قرب الماء ، مصبوغة بالارجوان في طرف الغصون العارية . متذبذبةً في نهر قاتم الحمرة .

إنزل ، ايها الكوكب المجيد ، ينبوع النهار ومصباحه ! ان مجدك سائل من جرحك بهيئة شلالات من الذهب ، كما ينحدر من صدر قدير حب فائق . موتنّ فانك تولد ثانيةً ، ورجاء ذلك اكيد . ولكن من يعيد الحياة واللهيب والصوت الى قلب قد تمزق آخر تمزق ؟ ».

قد بلغنا اقصى حدود مقالة صالحة للنشر في مجلة يجب تنويع مواضيعها ، برضى طبقات من القرّاء المختلفي الاذواق والاميال . على كل حال نرجو ان ان تكون منها لجميعهم فائدة وتفكهة ، اولًا لجدة موضوعها ، فان «المشرق» لم ينشر شيئاً عليه في حياته الطويلة ، ثم لان شعرنا الغنائي الممتاز لا يزال ، على رأينا ، في نشأته ، وهو في مجموعه قليل المادة ، زهيد الابتكار في الخيالات والتعابير . فلا بد لنا من تعريب كثير من بدائع ذلك الشعر عند توابغ اصحابه الغربيين ، لنقتبس منهم شيئاً من غزارة مواضيعهم وقدرة مخيلاتهم ، فضلًا عن عمق الافكار ونُبل العواطف .